بغداد ما بعد 'السقوط'

27-8-2003

يرى الكاتب أن معركة بغداد والقدس واحدة، وأن حرب التحرير الشعبية أو ما أسماه سابقا "الشعب المسلّح" هو المفهوم الكفيل بتحرير بغداد كما تحررت بيروت، وكما يقوم اليوم الشعب الفلسطيني بعمل المقاومة في مواجهة الاحتلال. ويجد التل أن الجيوش العربية مع تعالي الهتافات المنددة بالتهافت الرسمي العربي أمام المشروع الصهيوني- الامريكي هي من قد يقوم بتغيير هذه الأنظمة بعدما حالت بكل وضوح بين هذه الجيوش وبين قيامها بواجبها الجهادي.

بقلم محمد سليمان

يدفع سقوط بغداد إلى مراجعة الحال العربي وقراءته بتمعن وبموضوعية من خلال رؤية تحليلية تبتعد عن جلد الذات في نفس الوقت الذي تتجاوز فيه التحايل على الحقائق أو خداع الذات، ولعل هذه القراءة هي التي سعى الأستاذ بلال التل إلى تقديمها مؤخرا من خلال كتابه "سقوط بغداد: المقدمات النتائج" الصادر عن المركز الأردني للدراسات والمعلومات التي يديره الاستاذ التل؛ الكاتب الأردني الإسلامي ورئيس تحرير صحيفة اللواء الأسبوعية العريقة.

ويأتي كتاب التل في إطار النقد الذاتي الحضاري أو مساءلة الهزيمة – على حد تعبير محمد الأنصاري- وهذا واجب أصيل ومتطلب شرعي وأخلاقي من أهل الفكر والثقافة الذين يعنون بحالة الأمة وأدائها للأمانة. والملمح الأساسي لهذا الكتاب أنه يرسم لوحة متكاملة للحال الدولي والإقليمي والداخلي في العراق أو بعبارة أخرى: شروط الهزيمة، بحيث ينتقل الكاتب من وصف الواقع الدولي إلى الواقع العربي ثم الحال العراقي: في تفكيك وتحليل للمشهد العام للهزيمة يضعك أمام الحقائق التي قد يدرك ويعلم بعضها أو كلها كثير من الناس والمفكرين لكنهم يجدونها في كتاب التل من خلال رؤية متكاملة وواضحة تضع العلامة المباشرة والصريحة على مواطن الداء وأسباب العلل، ليكتشف القاريء بعد الانتهاء من القراءة أن الهزيمة هي من الداخل قبل أن تكون من الخارج أو هي من قابليتنا للاستعمار قبل ولوج الاستعمار وإقامته لقواعده العسكرية فوق أراضينا وسرقته لثرواتنا، يقول التل بصريح العبارة " يكاد المشهد العراقي يختزل المشهد العربي برمته، لذلك فإن دراسته واستخلاص العبر من تجربته تصلح كنموذج مخبري لتشخيص الحالة العربية.." نعم إن سقوط بغداد كان بفعل عوامل لا تنحصر ببغداد وإنما تنطبق على حال الواقع العربي برمته، من هنا فإن سقوط بغداد مؤشر في استشراف مستقبل الواقع العربي في ظل هذه الظروف مالم يسع الى التغيير والتبديل.

إطلالة على المشهد الدولي والإقليمي:

يتطرق التل إلى الواقع العالمي والعلاقة بين الولايات المتحدة والأمم المتحدة والدول الكبرى، ويناقش أحلام الامبراطورية الأمريكية التي يقودها المحافظون الجدد، وأثر 11 أيلول على السياسة الأمريكية، كما يلقي الضوء على ازدواجية القيم والمعايير والتجاوز الأمريكي الصارخ لحقوق الإنسان وحرياته العامة في داخل الولايات المتحدة وخارجها وللرأي العام العالمي.

ثم يتناول الكاتب حال الأمة العربية ويقرأ الواقع العربي عشية سقوط بغداد من خلال تتبع تاريخ الصراع العربي- الصهيوني والعلاقة بين الولايات المتحدة والعرب مبينا أن الأمة في كل مرة كانت تقف لتستعيد إرادة المقاومة والمواجهة، إلاّ أن الأمة مع سقوط بغداد استسلمت للهزيمة، وأول معلم من معالم الهزيمة في الواقع العربي هو : " إن بغداد وإن كانت سقطت تحت قصف الطائرات والدبابات الأمريكية، فإن هذه الطائرات والدبابات ما كان لها أن تحقق هذا الذي حققته في العراق لولا الدعم اللوجستي عسكريا وسياسيا واقتصاديا الذي قدمه لها بعض أبناء الأمة ضد بعضهم الآخر، فالطائرات التي كانت تقصف بغداد والدبابات التي كانت تدك البصرة، انطلقت من أرض عربية إسلامية في أبشع تعبير من تعبيرات هزيمة الأمة"، ويستخلص الكاتب علامات الهزيمة ودلالاتها وأولها -كما ذكرنا- الاستسلام للهزيمة والقبول بها، وثانيها أن الخيانة أصبحت أمرا مشروعا ولم تعد في نظر الكثيرين عيبا ولا خيانة، إلى درجة تباهي المعارضة العميلة بدخول بغداد في جوف الدبابات الأمريكية، " وإذا كان العملاء في فلسطين يسلمون رؤوس الرجال من قادة المقاومة لنيران الطائرات الإسرائيلية، فإن العملاء في العراق قد سلموا رأس وطن لدبابات العدو لتسحقه.."، ويشير الكاتب الى جوانب متعددة من الهزيمة والتي لا تقف عند النظام الرسمي العربي وأبرز مؤسساته جامعة الدول العربية، بل تصيب مؤسسات المجتمع المدني ومراكز الدراسات التي تعتاش على المساعدات والأموال الغربية والتي بدورها تحدد أجندة هذه المؤسسات بما يخدم المشروع الأمريكي، وتعمل على تسويق الهزيمة وتعميقها في التفكير والوجدان العربي بمسميات وحجج مختلفة..، كما يتطرق الى العلاقة الارتباطية بين الهزيمة وخطاب الفرقة العربي وحالة الدول العربية واستشراء روح القطرية بدلا من خطاب الوحدة ومفهوم الأمة، لا بل محاولة زعزعة والاخلال بالوعي العام بمفهوم الأمة ومقوماتها من خلال نحت مفاهيم جديدة تستند إلى مقومات تبتعد عن شخصية الأمة الحضارية مثل: معسكر السلام، الشرق الأوسط الجديد، مجموعة شرم الشيخ، وأخيرا مفهوم إقليم البحر الأحمر..الخ. حتى يصل الكاتب الى القول: " إن ما جرى في العراق ليس إلاّ رأس الجليد من هذه الحرب.." ، وتأكيده أن بقاء هذا الحال العربي يعني استمرار ارتهان الأمة وقضاياها المصيرية بما يجري في واشنطن.

المشهد العراقي وسقوط بغداد:
يتناول الكاتب المشهد العراقي من خلال تتبع ما حدث للسيدة طلفاح زوجة الرئيس العراقي المخلوع مستخلصا من ذلك الدروس ومن أبرزها: أهمية دور العشيرة كمؤسسة أهلية في الدفاع عن الوطن وخطورة التلاعب في هذه البنية الاجتماعية ومحاولة إضعافها في إطار إدارة الصراع الداخلي والتحكم بعناصر موازنات القوى الداخلية، ومن الدروس خطورة النفاق والتزلف للحاكم وأثره المدمر على روح الأمة وأخلاقها وهو الأمر الذي كان واقعا في حكم الرئيس المخلوع.
من أسقط بغداد؟..
يتطرق التل إلى العوامل الإقليمية في سقوط بغداد وتآمر العواصم العربية الأخرى عليها، لكنه يشير إلى أن الأخطر هو الحال الداخلي العراقي الذي سبب وسرّع من عملية السقوط بطريقة مريعة، " وهذا ماحصل مع بغداد التي سقطت في حفرة الاحتلال الأمريكي عندما اختلت رؤية أبنائها بفعل القهر والاستبداد.."، ويصل التل الى القول: ان مسؤولية سقوط بغداد جماعية تتحملها الأمة بأسرها من النظام الفاسد الى المثقف المنافق إلى الشقيق الخائن..

من القدس إلى بغداد، المعركة واحدة:
يرى الكاتب ان معركة بغداد والقدس واحدة، وان حرب التحرير الشعبية او ما اسماه سابقا "الشعب المسلّح" هو المفهوم الكفيل بتحرير بغداد كما تحررت بيروت، وكما يقوم اليوم الشعب الفلسطيني بعمل المقاومة في مواجهة الاحتلال.
ويجد التل أن الجيوش العربية مع تعالي الهتافات المنددة بالتهافت الرسمي العربي أمام المشروع الصهيوني- الامريكي هي من قد يقوم بتغيير هذه الأنظمة بعدما حالت بكل وضوح بين هذه الجيوش وبين قيامها بواجبها الجهادي.
إلاّ أن التل يستدرك أنه قد لا تكون الجيوش وحدها أداة التغيير في الواقع العربي الرسمي المأزوم، ويحذر أن الزلزال الحالي في المنطقة قد يقود واشنطن إلى محاولة القيام بتغييرات سياسية تستبق التغييرات الذاتية النابعة من قناعات الأمة وقواها الحية، وستسعى واشنطن إلى إشغال الشعوب بتغييرات على الطريقة الأمريكية من خلال استنساخ نماذج مثل كرزاي.

حرب شاملة.. مقاومة شاملة..
يتناول الكاتب في هذا الفصل موضوعا حيويا في طبيعة المواجهة الحضارية بين الأمة العربية وبين الولايات المتحدة، حيث يرى أن احتلال العراق يمثابة " المفتاح الذهبي" للمشروع الأمريكي الذي يسعى إلى الهيمنة على المنطقة، و لا يقف عند حدود الغزو العسكري وإنما يمتد إلى الجوانب الأخرى السياسية والثقافية والاقتصادية بقصد إحداث تغييرات جوهرية في البيئة بهدف تكريس الهيمنة الصهيونية الأمريكية في

كافة المجالات، وإذا كانت الهجمة شاملة فلا بد أن تكون المقاومة شاملة ومتكاملة ولا تقف عند حدود جبهة معينة.

من يبايع على الموت.. و الكفاح المسلّح:
يختم الكاتب بفصول تدعو تحث على اختيار طريق المقاومة والجهاد في مواجهة الغزو الأمريكي الصهيوني للأمة، ويؤكد التل أن المقاومة المسلحة هي الكفيلة في مواجهة العدوان والدفاع عن الكرامة، ويؤكد أنه على الرغم من سقوط بغداد فإن هناك الكثير من الدروس الإيجابية التي يجب أن نستخلصها من الحدث وأهمها صمود الشعب العراقي قبل انكشاف الجيش وحدوث الخيانة هذا الصمود الذي يعزز من مفهوم الشعب المسلح الذي يركز عليه كاتبنا، وإذا كان البعض يشكك في صمود العراقيين فمن يستطيع التشكيك بصمود المقاومة اللبنانية التي أرغمت العدو على الخروج من لبنان ومن يشكك بصمود المقاومة الفلسطينية!، ومن الدروس التي تؤكد أهمية مفهوم الجهاد المسلح: الشباب العربي الذي تقاطر بالألاف على العراق للدفاع عنها وصبر وصابر حتى النهاية، يقول: " خلاصة الأمر أن الشعب المسلح هو طريقنا لتحرير أوطاننا والدفاع عنها ، وقد أثبت أبناء أمتنا أنهم رغم القهر الذي يعانونه . ورغم استيلاب حريتهم من قبل أنظمتهم السياسية فإن انتماءهم لعقيدتهم ولتراب أمتهم راسخ، وإن هذا الانتماء يتحول لحظة الامتحان إلى حالة استشهادية".

مشروع: المقاومة، الاستقلال، النهضة..
وبعد،..
فإن كتاب الاستاذ بلال التل ينطلق من رؤية واضحة راسخة تستند إلى مشروع المقاومة المسلحة للاستعمار العسكري والاستقلال السياسي والوحدة في مواجهة التجزئة والتبعية والنهضة والتنمية الذاتية لحل الأزمات الاقتصادية والأصالة في التعبير عن الذات الحضارية، وهذه المنطلقات هي التي تصاحبنا طيلة قراءة سطور الكتاب ونتلمسها فيما بين السطور، انه هم واضح ومعين أقرب إلى الخطاب العام للمجموع الإسلامي كي يدرك حجم المعركة وحقائق الواقع، وهو نداء حركي –على حد تعبير د. حامد ربيع رحمه الله- للأمة والشعوب والمثقفين والناس يسعى إلى ستنهاض هممهم من خلال تذكيرهم بخطورة ما آل اليه حالهم ومن خلال التأكيد على طريق المواجهة الشمولية ضد مشروع الاحتلال والاستغلال والهيمنة.